



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلوة والسلام على من لا نبي بعده. أما بعد:

فقد شارفت محن الشام، على بلوغ العام! دماء، وأشلاء، وحرق للأحياء، وقتل للضعفاء، وهتك لأعراض النساء. مشاهد دامية بمرأى، ومسمع، من العالم (المتحضر)! لا عذر لأحد. الكل يرى بالصوت، والصورة، مناظر تشعر لها الأبدان، وتستدر دموع أشداء الرجال؛ تجويح، وترويع، وخطف، وتقطيع! (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا نِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) [التجويف: 10].

ويتساءل المؤمنون، كما تسأله أسلافهم: (مَتَى نَصْرُ اللَّهِ)، ويجيء الرد فوراً: (أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة: 214]. إن استبطاء النصر والفرج نزعة بشرية طبيعية، يعالجها المؤمن بمسكّنات القلوب، وحسن الظن بعلم الغيوب، وتلمس الحكم الغائية من وراء آلام الابتلاء. ويلوح في أفق المؤمنين مشاهد تاريخية مماثلة للسابقين الأولين الذين مستهم الپأساء والضراء وزلزلوا؛ كـ(القليل) الذي مع نوح، و(الذرية) التي مع موسى، و(الطائفة) التي مع عيسى، و(النّزاع من القبائل) مع محمد، صلوات الله وسلامه، ورضوانه، عليهم أجمعين.

وقد أثمر التأمل المصحوب بالألم، في هذه النازلة الشامية، عن حزمة من الحكم العظيمة، منها:
أولاً: تحقيق التوحيد: فقد انفض عن أهل الشام القريب والبعيد، وأسلموا لهم لعدوهم، إلا قليلاً، بل قد صدموا بموافقت سلبية، وخيانات سافرة، ممن كانوا يرجون نصرهم، وتأييدهم، وكأنهم يمثلون قول الشاعر العربي:

قد كنت أحجاً أباً عمرو أخاً ثقة *** حتى ألمت بنا يوماً ملماً

كانوا يأملون من جامعة الدول العربية توفير حدّ أدنى من الدعم المعنوي، فبدت الجامعة تغطي سوء الفاجر، وتمنحه من المهل ما لا تملك، فكأنّي بأهل الشام ينشدون:

وظلم ذوي القربي أشد مضاضة *** على المرء من وقع الحسام المهند

حيئذ أدركوا معنى قوله - تعالى - : (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) [آل عمران: 126] فانطلقت حناجرهم تهتف بما في قلوبهم (ما لنا غيرك يا الله)! وتلك حقيقة التوحيد.

ثانياً: تمييز الصدّيق، وانكشاف العدو من الصديق، والطيب من الخبيث: لقد عاشت بلاد الشام عقوداً اختلط فيها الحابل بالنابل، والتيس الحق بالباطل، واختلطت الشعارات، وتسمم ذروة الدين أقزام أدعية من الصوفية الخرافيين، وعلماء السوء الوصواليين، ودعاة الرفض السياسيين، حتى تشيع كثير من السذج البسطاء سياسياً، وربما عقدياً، فجاءت هذه الأحداث العظام، لتميط اللثام، عن وجوه اللئام، الذين تواطأوا مع النظام.

لقد عرف الناس عدوهم، وأيقنوا أن المعركة معركة عقيدة، وأن معسّر الكفر، والفسق، والعصيان، أخلّاط من أو باش النصيرية، والصوفية، والعلمانية، اصطفوا بقضائهم، وقضيّ عليهم، حماية لمكاسبهم المحرمة، التي كدسواها عبر عقود، في وجه معسّر أهل السنة والإسلام. وتلك نعمة عظيمة، وحكمة جليلة، امتن الله بها على المؤمنين الأوائل، في مواقف جهادية مقاربة: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمْيِيزَ الْخَبِيرُ مِنَ الطَّيِّبِ) [آل عمران: 179]، (يَمْيِيزُ اللَّهُ الْخَبِيرُ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلُ الْخَبِيرَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] [الأنفال: 37].

- انكشف النصيرية الحاقدون، المستترون خلف شعارات قومية، عروبية، بعثية.

- انكشف الرافضة الموالون لإيران، من (حزب الالات) حتى قال كبيرهم الذي علمهم البهت، بصفاقة، وبجاجة: (لا شيء يجري في حمص! شوية إطلاق رصاص! بس!).

- انكشف الصوفية المتخاذلون، المميتون للسنة، المحييون للبدعة، واصطفوا مع الكافر الباغي، حفاظاً على امتيازاتهم، وتكاياتهم، وزواياهم، التي يأكلون فيها السحت، ويضلّلون العامة، ويحذرونهم من دعوة السلفية.

- انكشف علماء السوء الذين ظلوا يسوغون للنظام الباغي كفره، وفسقه، ويسبحون بحمده، ويقدسون، لقاء ليرات يقتاتون بها لدنياهم على حساب دينهم.

- انكشف العلمانيون واللبيراليون، الذين يتاجرون بالشعارات الوطنية، وينافقون، فتارة مع النظام، وتارة مع المعارضة، كما يصنع اليربوع (إذا أتَيَ مِنْ قِبَلِ الْقَاصِعِاءِ ضرَبَ النَّافِقَةَ بِرَأْسِهِ فَانْتَفَقَ... وَمِنْهُ اشْتَقَاقُ الْمُنَافِقِ فِي الدِّينِ) [الصالح: 2/224].

ثالثاً: سنة الابلاء: سنة كونية، يستخرج الله بها مكنونات النفوس، وحقائق الضمير، ويستنبط بها إيمان المؤمنين، وكفر الكافرين. قال - تعالى - : (وَلَكُنْ لَيْلَوْ بَعْضُكُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلُ أَعْمَالُهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَّهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ) [محمد: 4 - 6]. لا بأس عليكم يا أهل الشام! فما أنتم إلا بإحدى الحسينين؛ نصر، أو شهادة.

رابعاً: شرط النصر: ربما تأخر النصر، لعدم توفر شرطه، أو أبطأ لعدم اكتماله. وقد صرّح الله لعباده بشرطه، وتکفل لهم بالوفاء بوعده، بعبارة محكمة رصينة، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَيِّنُ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَلُهُمْ وَأَضْلَلُ أَعْمَالَهُمْ) [محمد: 7 - 8]. فافحصوا حالكم يا إخواننا، وتعاهدوا قلوبكم، وأعمالكم، وثقوا بنصر الله.

خامساً: إيقاظ المترددين، من أهل السنة: ظلت ثفات، وحكومات سنية، تراوح مكانها، وتجمجم في كلامها، مرتهنة لاعتبارات وهمية، وحسابات خاطئة، تتعامي لعقود طويلة عن حقيقة المعركة، وتهرب من تهمة (الطايفية) التي يمارسها خصمهم المجوسي، الفارسي، بأبشع الصور. لقد أوقفتهم الأحداث على ما لا يمكن لصحيح دين، وسوسي عقل، وكريم مروءة، أن يرده. فاتضحت لغة غامضة، وعلت نبرة خافته، وتحركت قوى هامدة، لتصنع شيئاً، وتسلّح أعزلاً.

ولا ريب أنه (لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرَ مِنْهُمْ)! ولكننا قوم يستعجلون! فعسى الله أن يعجل بالفرج، ويكشف الضر، ويشفى صدور قوم مؤمنين.

المصادر: